نوى القربـــي وتحالـــف الاعـــداء الثلاثـــة ضده : الصهاينة ؛ الانكليز ؛ الرجعية .

ولكن اشد ما يؤلمه ويحز في نفسه هو موقف الرجعية العربية التي يرمز لها بال « عم » . ان « العم » يغتصب الام (فلسطين ـ الارض) ويتآمر ضده مع الطغيان ويطالب بكل شيء في فلسطين حتى الاولاد . ويلاحق البطل حتى في الغربة . والبطل ضعيف امام « العم » ، لا يعرف كيف يدافع عن نفسه ويرد الصفعة ؛ لانه ضائع ولا يجد سبيله الى المهدي (الثورة ؟ !) لان قلب علي معذب باستمرار لا يعرف طعم النوم الكامل . وحين ينام يطفو الأسى على سطح وعيه . والعم لا يفتأ يلاحقه واخوانه واخواته ، ويضعهم في السجن ويقتلهم وينتهك حرمه عذراواتهم ، ويمنعهم من الاحتجاج على الفتات الذى يقدم لهم باسم الاعاشة (ضريبة التكفير التي يدفعها المجتمع الدولي) .

وهكذا تستمر وقائع القضية الفلسطينيـــة مع وقائع حياة علي في المنفى ، ويتساوق الايقاع بين المستويين تساوقا قويا ولا سيما في نهاية الرواية : اذ تترافـق ثورة العمـال على الفاشيـــة مع ثورة الفلسطينيين على الصهيونية وهذا في مقابل مشهد ثورة العمال الذى اخترنا المقطـع المذكور انفـا لتمثيله ، نرى ثورة البندقية الفلسطينية و « عودة الوعي » الفلسطيني في المقطع التالي الذى ياتي مباشرة بعد المقطع السابق

تقلد اخي بندقيته الجديدة ، فأتاك بالعيد ، واتاك بالابتسامة . وفي كل طلقة تقطع الحدود كان يعلن للعالم انه عاد سيد نفسه من جديد ، ولـم تعـد فلسطينيتك احجية . وفي كل صيحة تقطع حواجز الجنود كنت اعلن للعالم ايضا انني عدت سيد نفسي من جديد ، ولم تعد غربتك احجية (ص ١٩٦ من الرواية) .

وفي النتيجـة تكون ثورة العمـال كالثـــورة الفلسطينية او العكس . ان امتشـاق السـلاح والشروع في زلزال العنف ليس الا بداءة . وهناك خطوات طويلة على الطريق ، والنقيض يتسع يوما بعد يوم وليس له حل الا تصفية الاخر : لان الاخر لا ينتهي بسهوله . ومع العمل الثورى هناك الحذر المطلوب والحساب الدقيـق . اذن الثـورة بداءة الانتفاض ، وهكذا ننتهي الرواية بالمقطع الباطني التالي :

« ...وعندما رأيت احدهم يقترب من بعيد تذكرت قولك ، رغم ان شوقي كان شديدا . فاذا بي مرة اخرى وجها لوجه معه على الارض ، والظلام ينشر اجنحته . وحادت الاشياء عن مسارها في عيني لحظة ، فقلت لي ما هذا الا لتضاعف الرؤية وتتفادى الخطأ . لتجرى حساباتك جيدا في المرة القادمة ولتكن واثقا ، ولتكن عميقا مستوعبا معنى الخطر . ورأيت يا امي نقيضنا يكبر ، وكيف ينمو اكثر واكثر كلما تقدم احدنا من الاخر (الصفحة الاخيرة من الرواية) .

* * *

فالطريق ، اذن ، ما يزال طويلا محفوفا بالمخاطر ، ومسلسل التضحيات لا بد له من ان يستمر ، ولكن تباشير الامل موجودة دون ان يكون هناك شيء مؤكد او غاية محـــددة . هنـــاك امــل عريض غامض بالخلاص ، لا اكثر من ذلك ولا اقل ، ولكن ما هو الخلاص ؟ وكيف ؟ ومن ؟ والى اية غاية ؟ هذه الاسئلة تتركها الرواية معلقة في الفراغ .

وبالطبع ، ليس في هذه الملاحظة اي ايحاء بالنيل من الرواية ، انها مجرد تقدير واقع . فالرواية سيدة نفسها ، تقول ما تشاء ان تقوله ، وتقف عند الحد الذى تريد . والمرحلة التي تعالجها « النقيض » صعبة جدا ومعقدة جدا ، والظلمات تكتنفها من كل جانب . ومن حق الرواية الا تلزم نفسها بأية رؤية محددة . ولكن من حقها ايضا ان تفعل ذلك حين تستند الى تحليل ايديولوجي متماسك او موقف ثورى صلب .

على انه ليس من الانصاف ان يغفل المرء ناحية ذات اهمية فيما يتعلق برؤية هذه الرواية . ذلك انها انجزت ـ كما تشهد الصفحة الاخيرة منها ـ في باريس في ١٢/ ١/ ١٩٧٢ (أي قبل حرب تشرين الاول بحوالى سنتين) . ومن الواضح انها استندت الى تجربة الثورة الفلسطينية التي بدأت قبل ذلك بسنوات ، لتقول ان تلك الثورة هي حالة استعداد للخلاص لا بد من ان تتبعها فورات من الطوفان العربي العام ، وكانها تنبأت بطوفان تشرين كما تنبأت بأن هذا الطوفان محدود القدرة لان العالم لابد من ان يتدخل لحماية « كابليوك » .

على ان « النقيض » لا تحتمل أي ايغال في تفسير